فاطمة بنت عبد الملك

ربما كان حديث ابن أبي ربيعة مع فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، أظرف ما مرَّ بنا من الأحاديث؛ لما فيه من المفاجآت التي تمثل دهاء ربات القصور في ذلك الحين. فقد روى صاحب الأغاني أنها حجت، فكتب الحجاج إلى عمر بن أبي ربيعة يتوعده أن ذكرها في شعره بكل مكروه، وكانت تحب أن يقول فيها شيئًا وتتعرض لذلك، فلم يفعل خوفًا من الحجاج. فلما قضت حجها خرجت فمرَّ بها رجل، فقالت له: من أنت؟ قال: من أهل مكة. قالت: عليك وعلى أهل بلدك لعنة الله! قال: ولِمَ ذاك؟ قالت: حججت فدخلت مكة ومعي من الجواري ما لم تر الأعين مثلهن. فلم يستطع الفاسق ابن أبي ربيعة أن يزودنا من شعره أبياتًا نلهو بها في الطريق في سفرنا. قال: فإني لا أراه إلا قد فعل. قالت: فأتنا بشيء إن كان قاله ولك بكل بيت عشرة دنانير. فمضى إليه فأخبره. فقال: لقد فعلت، ولكن أحب أن تكتم عليَّ، قال: أفعل. فأنشده:

راع الفؤاد تفرق الأحباب ... يوم الرحيل فهاج لي أطرابي

فظللت مكتئبًا أكفكف عبرةً ... سحًّا تفيض كوابل الأسراب

لما تنادوا للرحيل وقرَّبوا ... بُزل الجمال لطيةٍ وذهاب

كاد الأسى يقضي عليك صبابة ... والوجه منك لبين إلفك كابِ

وأنشده:

هاج قلبي تذكر الأحباب ... واعترتني نوائب الأطراب

وهي قصيدة طويلة ذكر صاحب الأغاني في أخبار حنين أن ابن أبي ربيعة قالها في فاطمة بنت عبد الملك، وذكر في أخبار الشاعر نفسه أنه قالها في الثريا بنت علي.

فلنقيد ذلك فإنه يؤيد ما أشرنا إليه من أن ابن أبي ربيعة غير صادق الحب، وأنه ينقل شعره من جميلة إلى جميلة وفقًا لمقتضيات الظروف، وأن الرواة وضعوا من أقاصيص عشقه ما شاء لهم الخيال، ترويحًا لأنفس السامرين من الخلفاء والأمراء.

حسابها لعمر على هتك الحرائر:

ولنذكر تلك القصة الطريفة التي رواها صاحب الأغاني في أخبار ابن أبي ربيعة؛ إذ نقل أنه كان جالسًا بمنى في فناء مضربه وغلمانه حوله، فأقبلت امرأة برزة عليها أثر النعمة، فسلمت فردَّ عليها السلام، فقالت له: أنت عمر بن أبي ربيعة؟ فقال لها: أنا هو، فما حاجتك؟ قالت له: حياك الله وقرَّبك، هل لك في محادثة أحسن الناس وجهًا، وأتمهم خلقًا، وأكملهم أدبًا، وأشرفهم حسبًا؟ قال: ما أحبَّ إليَّ ذلك! قالت: على شرط. قال: قولي. قالت: تمكِّنني من عينيك فأشدُّهما وأقودُك حتى إذا توسَّطت الموضع الذي أريد، حللت الشدَّ، ثم أفعل ذلك بك عند إخراجك حتى أنتهي بك إلى مضربك؟ قال: شأنك. ففعلت ذلك به. فلما انتهت به إلى المضرب الذي أرادت، كشفت عن وجهه، فرأى امرأة على كرسي لم ير مثلها قط جمالًا وكمالًا. فسلم وجلس. فقالت: أنت عمر بن أبي ربيعة؟ قال: أنا عمر. قالت: أنت الفاضح للحرائر؟ قال: وما ذاك جعلني الله فداك! قالت: ألست القائل:

قالت وعيش أبي وحرمة والدي ... لأنبهن الحي إن لم تخرج

فخرجت خوف يميننا فتبسَّمت ... فعلمت أن يمينها لم تحرج[1]

فتناولت رأسي لتعرف مسَّهُ ... بمخضَّب الأطراف غير مُشنَّج[2]

فلثمت فاها آخذًا بقرونها ... شرب النزيف ببرد ماء الحشرج[1]

---

(١) من الحرج وهو الضيق؛ يريد أنها لم تحلف معتزمة الحرص على اليمين.

(٢) مشنج: متقبض.

ثم قالت: قم فاخرج عني! ثم قامت من مجلسها وجاءت المرأة فشدَّت عينيه، وقد دخله من الكآبة والحزن ما لا طاقة له به، وبات ليلته. فلما أصبح إذا هو بها، فقالت: هل لك في العَود؟ فقال: شأنك. ففعلت به مثل فعلها بالأمس، حتى انتهى به إلى الموضع، فلما دخل إذا بتلك الفتاة على كرسي. فقالت: إيه يا فضَّاح الحرائر! قال: بماذا؟ جعلني الله فداكِ! قالت: بقولك:

وناهدة الثديين قلت لها انكي ... على الرمل من جبانة لم توسَّدِ
فقالت على اسم الله أمرك طاعةٌ ... وإن كنت قد كُلِّفتُ ما لم أُعوَّدِ
فلما دنا الإصباح قالت فضحتني ... فقم غير مطرود وإن شئت فازدد

ثم قالت: قم فاخرج عني! فقام فخرج ثم رُدَّ، فقالت له: لولا وشكُ الرحيل، وخوف الفَوتْ، ومحبَّتي لمناجاتك والاستكثار من محادثتك، لأقصيتك. هات الآن كلِّمني وحدثني وأنشدني، فكلم آدب الناس وأعلمهم بكل شيء. ثم نهضتْ وأبطأت العجوز وخلا له البيت، فأخذ ينظر فإذا هو بتور فيه خلوق[٢]، فأدخل يده فيه ثم خبأها في رُدنه[٣]، وجاءت تلك العجوز فشدَّت عينيه ونهضت به تقوده حتى إذا صار على باب المضرب، أخرج يده فضرب بها على المضرب، ثم صار إلى مضربه فدعا غلمانه فقال: أيكم يقفني على باب مضرب عليه خلوق كأنه أثر كف فهو حر، وله خمسمائة درهم. فلم يلبث أن جاء بعضهم فقال: قم، فنهض معه فإذا هو بالكف

(١) القرون: أفرع الشعر -والنزيف: كالمنزوف هو الظمآن الذي جف لسانه من العطش، أو هو المحموم الذي منع الماء -والحشرج: النقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو ويطيب.

(٢) التور: إناء صغير. قال صاحب الأساس: ومررت بباب العمرة على امرأة تقول لجارتها: أعيريني تويرتك. سمي بذلك لأنه يتعاور ويردد، أو سمي بالتور وهو الرسول الذي يتردد ويدور بين العشاق. ومأخذه من التارة؛ لأنه تارة عند هذا وتارة عند هذا.

(٣) الردن: الكم.

طَرِية، وإذا المضرب مضرب فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، فأخذتْ في أُهبة الرحيل، فلما نفرت نفر معها، فبصُرت في طريقها بقباب ومضرب وهيئة جميلة، فسألت عن ذلك فقيل لها: هذا عمر بن أبي ربيعة. فساءها الأمر، وقالت للعجوز التي كانت ترسلها إليه: قولي له: نشدتك الله والرحم أن تصحبني، ويحك! ما شأنك وما الذي تريد؟ انصرف ولا تفضحني وتُشيط بدمك[1]، فسارت العجوز إليه فأدَّت ما قالت لها فاطمة، فقال: لست بمنصرف أو توجه إليَّ بقميصها الذي يلي جلدها، فأخبرتها ففعلت ووجهت إليه بقميص من ثيابها فزاده ذلك شغفًا، ولم يزل يتبعهم لا يخالطهم حتى إذا صاروا على أميال من دمشق انصرف وقال في ذلك:

ضاق الغداة بحاجتي صدري ... وبثست بعد تقارب الأمر

وذكرت فاطمة التي عُلِّقتها ... عَرَضًا فيا لحوادث الدهر

ممكورةٌ رَدْع العبير بها ... جمُّ العظام لطيفة الخصر[2]

وكأن فاهًا عند رَقدتها ... تجري عليه سُلافة الخمرِ

شَرِقًا بذَوْب الشهد يخلطهُ ... بالزنجبيل وفأره التجر[3]

عرضت لنا بالخيف في بقرٍ ... نقرو الكباثَ وناضِر السَّدر[1]

وجلت أسيلًا يوم ذي خُشُبٍ ... ريَّان مثل فُجَاءَة البدرِ[2]

---

(١) أشاط دمه وبدمه: أهدره وعرض نفسه للقتل.

(٢) الممكورة: الحسناء المستديرة الساقين المحكمة التكوين، والردع أثر الطيب في الجسد -والعبير الزعفران أو أخلاط من الطيب. وجم العظام: دقيقتها مكتنزة اللحم. والقياس أن يقول: جماء، ولكن ابن أبي ربيعة كثير التساهل في ضوابط العربية.

(٣) التجر: جمع تاجر، والفأرة نافجة المسك. قال صاحب القاموس: أو الصواب إيراد فارة المسك في فور لفوران رائحتها أو يجوز همزها؛ لأنها على هيئة الفأرة. وقيل لأعرابي: أتهمز الفأرة؟ فقال: الهرة تهمزها. وغرض الشاعر من هذا البيت والذي قبله وصف ثغر المحبوبة بطيب النكهة وعذوبة المذاق.

فسبَتْ فؤادي إذ عرضت لها ... يوم الرحيل بساحة القصر
بمزيَّنٍ ردع العبير به ... حسن الترائب واضح النحر[٣]
وبجيد آدمَ شادنٍ خرقٍ ... يرعى الرياض ببلدةٍ قَفرِ[٤]
لما رأيت مطيهاً حِزَقًا ... خفق الفؤاد وكنت ذا صبر[٥]
وتبادرت عينايَ بعدهُم ... وانهلَّ دمعهما على الصدرِ

ومن شعره فيها وقد جدَّ بها الرحيل:

كدتُ يوم الرحيل أقضي حياتي ... ليتني متُّ قبل يوم الرحيلِ
لا أطيق الكلام من شدة الوجْـ ... ـد ودمعي يسيل كل مسيلِ
ذرفت عينُها ففاضت دموعي ... وكلانا يلقى بلُبٍّ أصيل
لو خلت خلتي أصبتُ نوالًا ... وحديثًا يشفي مع التنويلِ
ولظلّ الخلخال فوق الحشايا ... مثل أثناء حية مقتول[٦]
ولقد قالت الحبيبة لولا ... كثرة الناس جُدت بالتقبيل
ليس طعم الكافور والمسك شيبا ... ثم عُلَّا بالراح والزنجبيل[١]

---

(١) تقرو: تتبع -والكباث كسحاب النضيج من ثمر الأراك -والسدر: شجر النبق.

(٢) الأسيل: الرقيق -وذو خشب بضمتين: واد على مسيرة ليلة من المدينة له ذكر كثير في الحديث والمغازي.

(٣) الترائب: جمع تريبة، وهي موضع القلادة من الصدر.

(٤) الجيد: العنق -والآدم من الظباء ما فيه أدمة، وهو لون مشرب بياضًا، وهي في الإنسان السمرة فيقال: رجل آدم اللون؛ أي أسمره -والشادن: الظبي الذي شدن؛ أي قوي واستغنى عن أمه، وهو أول العهد بالمرح وجنون الشباب -والخرق: هو الخائف المتحير.

(٥) الحزق: جمع حزقة بالكسر، وهي الجماعة.

(٦) الحشايا: جمع حشية؛ وهي الفراش المحشو -وأثناء الحية مطاويها وتضاعيفها إذا تثنت، وجرى وصفها مذكرًا إذ كانت لا تقصر على التأنيث.

حين تنتابها بأطيب من فيـ ـها طُروقًا إن شئت أو بالمقيل[٢]
ذاك ظني ولم أذق طعم فيها لا وما في الكتاب من تنزيل
رَبعةٌ أو فويق ذاك قليلًا ونؤوم الضحى وحق كسولِ[٣]

وقال فيها أيضًا هذه الرائية:

يا خليليَّ شفني الذِّكر وحمول الحيِّ إذ صدروا
ضربوا خُمر القباب لها وأديرت حولها الحُجر
لو سُقي الأموات ريقتها بعد كأس الموت لانتشروا
ويكاد الحجل من غَصصٍ حين تستأنيه ينكسر[٤]
ويكاد العجز إن نهضت بعد طول البُهر ينبتر[٥]
أخيام البئر منزلهم أم همُ بالعمرة ائتمروا[٦]
أم بأعلى ذي الأراك لهم مربعٌ قد جاده المطر[٧]

---

(١) شيبا: مزجا من الشوب وهو المزج -وعلا: من العلل بفتحتين، وهو الشربةالثانية أو الشرب بعد الشرب تباعًا، يقابل النهل بفتحتين وهو الشرب الأول -والمراد من عل الكافور والمسك بالراح والزنجبيل إضافة الأخيرين إلى الأولين ليتألف منها الشراب.

(٢) تنتابها: تزورها. من الانتياب وهو الإتيان مرة بعد أخرى -والطروق: زيارة الليل -والمقيل: راحة الظهيرة. والشاعر يصف محبوبته بطيب الفم في وقت القيلولة وعند هدأة الليل؛ لأن هذا أدل على قوة الصبا؛ إذ كانت الأفواه تتغير عادة عند الهجوع.

(٣) ربعة ليست بالطويلة ولا بالقصيرة -ونؤوم الضحى: كناية عن الترف؛ إذ لا تنام الضحى إلا المرأة المخدومة التي يقوم وصائفها بما يعنيها من مختلف الشئون، وهي لذلك مكسال.

(٤) الحجل -بالكسر والفتح-: الخلخال -والغصص: الضيق -وتستأنيه: تثبته.

(٥) البهر: انقطاع النفس من الإعياء -والبتر: القطع.

(٦) البئر: اسم لعدة أماكن أكثرها بالمدينة؛ منها بئر رومة وبئر رئاب وبئر عروة وبئر غدق. ولم نعرف بالضبط ما يقصد الشاعر من بين هذه الآبار.

سلكوا شِعب النِّقاب بهـا ... زُمَّرًا تحتثُّها زُمَرُ[٢]

وطرقت الحي مكتتمًا ... ومعي عضبٌ به أثرُ[٣]

وأخٌ لم أخش نبوتهُ ... بنواحي أمرهم خبرُ[٤]

فإذا ريمٌ على فُرُش ... في حِجال الخزِّ مختدرُ[٥]

حولَه الأحراس ترقبه ... نُوَّمٌ من طول ما سهروا

شَبَهُ القتلى وما قُتلوا ... ذاك إلا أنهم سمروا[٦]

فدعت بالويل آونةٍ ... حين أدناني لها النظر

ودعت حوراء آنسةً ... حرة من شأنها الخفر[٧]

ثم قالت للتي معها ... ويح نفسي قد أتى عُمر

ما له قد جاء يطرقنا ... ويرى الأعداء قد حضروا

لشقائي كان علَّقنا ... ولحيني ساقه القدر[٨]

قلت عرضي دون عِرضكمُ ... ولمن ناواكم الحجر[٩]

---

(١) وادي الأراك قرب مكة. قال ياقوت: وذو أراك في الأشعار.

(٢) النقاب: موضع من أعمال المدينة يتشعب منه طريقان إلى وادي القرى ووادي المياه -وتحتث: تسوق.

(٣) العضب: السيف القاطع -وأثر السيف أفرنده.

(٤) النبوة: الجفوة -وخبر: خبير.

(٥) الحجال: جمع حجلة -بفتحتين- وهي قبة تزين للعروس -ومختدر: ناعس.

(٦) وسمروا من السمر، وهو حديث الليل. وقد يراد به شرب الخمر.

(٧) الخفر: شدة الحياء.

(٨) الحين -بالفتح-: الهلاك.

(٩) العرض هنا النفس ومنه قول حسان:

أزواجها:

كانت فاطمة بنت عبد الملك تحت عمر بن العزيز، فلما مات عنها تزوجها داود بن سليمان بن مروان، وكان قبيح الوجه، فقال في ذلك موسى شهوات:

أبعد الأغر بن عبد العزيز ... قريع قريش إذا يُذكرُ

تزوجتِ داود مختارةً ... ألا ذلك الخلف الأعور

فكانت إذا سخطت عليه تقول: صدق والله موسى، إنك لأنت الخلف الأعور! -فيشتمه داود.

ولفاطمة بنت عبد الملك أحاديث في فتنة من عاصرها من الشعراء، كنا نود ذكرها لولا إيثار الإيجاز.

فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

وقد يراد به الجسد كما في الحديث: ((يجري من أعراضهم مثل ريح المسك)) وناوأكم: من المناوأة، وهي المعادة.